# الديالكتيك

بقلم فرانسوا سواع

الديالكتيك .. كلمة يحيط بها الغموض في الغالب، بسبب التحول الذي طرأ على معناهـــا عبر العصـور، واختلافه من فلسفة الى أخرى.

وقد حاولنا في هذا البحث الصغير ، اعطاء شـرح مبسط قدر الامكان لازالة ذلك الغموض . انه بالمستطـاع اعطاء شرح مطول أو مبسط للديالكتيك ، ولكنه من المتعذر دوما اعطاء تعريف محدد شامل للكلمة .

تأتي كلمة ديالكتيك «جدل» مباشرة من الكلمـــة اليونانية «ديالجين» أي يجادل ، فهي تعبر عـن الصـراع بين الافكار المتضادة .

ما هو الجدل ؟ الجدل هو منهج .. ما هو المنهـج ؟ المنهج هو الطريق التي توصلنا الى هدف ما ، وهو افضل طريقة عقلية توصل الى الحقيقة . ولا بد لكل فلسفـة من منهج، وعليه يكون بالامكان التفريق بين المناهج الجدلية، والمناهج غير الجدلية ، ولنأخذ كمثال « سقراط » ومنهجه الجدلي لنستنبط بعض المعلومات الاولية بدلا من أن يعرض سقراط فكرة في أبحاث طويلة ، كان له طـريقة جديدة تتألف من مرحلتين :

١ ــ التهكم

٢ ــ والتوليد

ففي الاولى كان يتصنع الجهل ويتظاهر بالتسليم بأقوال محدثيه ، ثم ينتقل من أقوالهم الى أقوال لازمة منها ولكنهم لا يسلمون بها ، فيوقعهم بالتناقض ويظهر جهلهم ثم ينتقل الى المرحلة الثانية فيساعد محدثيه بالاسئـلة والاعتراضات مرتبة ترتيبا منطقيا ، على الوصول الـى الحقيقة ، فيصلون اليها وهم لا يشعرون ، بل يحسبون أنهم اكتشفوها بأنفسهم .

الجدل اذن كما نستطيع ان نلاحظ ، هو فن المحاورة والمناقشة وفن الارتفاع العام بالابتداء من الوقائع المشخصة، والتحقق منها باللجوء الى وقائع اخرى ، هو فن البرهان ودحض كلام الخصم . فالمجادل ينظم معرفته ويصبها في نظام متماسك ، انه يخلق أساسا منطقيا لارائه ويشكـل « التناقض » المبدأ الاساسي الذي تقوم عليـه البراهين بالخلف في الجدل .

ان دحض حجج الخصم يعني اظهار أن نظريته تناقض الوقائع البديهية ، أو نظرية سابقة من نظرياته ، وبما أن القضايا المتناقضة لا يمكن أن تكون صحيحة في وقت واحد فان الخصم يضطر للاعتراف بخطأه .

## معالم الجدل القديم

هرقليطس : ٥٤٠ ــ ٤٧٥ قبل الميلاد

ان دراسة هرقليطس لا تفيد في توضيح معالم الجدل القديم بقدر ما تعيننا على فهم الجدل الحديث وخاصة عند هيجل ، فقد اعتبر في بعض الاحيان الاب الشرعي للجدل الهيجلي الحديث . « الاشياء في تغير مستمر » هذا هو قوله الاكبر وملخص مذهبه : انك لا تنزل النهر الواحد مرتين ، لانك لن تجد نفس قطرات الماء متجمعة، وهناك باستمرار مياه جديدة حولك ، ولولا التغير لم يكن شـيء، لان الاستقرار موت ، والتغير صراع بين الاضداد ليحـل بعضها محل بعض والشقاق ابو الاشياء وملكها جميعـا. فنحن ننزل في النهر ولا ننزل ، نحن موجودون وغـير موجودين من حيث أن الفناء يذب فينا في كل لحظة، فكل شيء كذا وليس كذا ، موجود وغير موجود .

هذه الاثباتات المتناقضة سيعاودها الجدل الحديث.

**زينون الايلي :**

يزنون تلميذ برمنديس ، يعتبر بحق رائد الطريقة الجدلية ، وقد وضع جهده في محاولة تأييد استـاذه ضد الذين سخروا منه ، وكان يعتمد في اقامة براهينه على التناقض بصورة جوهرية .

تتلخص أفكار استاذه بأن الوجود واحد قديم ثابت كامل ، وعليه فقد أنكر التغير والكثرة والتعدد التي قال بها هرقليطس والفيثاغورثيون الذين فسروا العالم والوجود بالاعداد ، كما أنكر الحركة . وقد وردت أمثلة طريفة على جدل زينون في محاورات أفلاطون ، فهو في معـارضته مبدأ الحركة والتغير يورد حججا أربعا . منها : **حجـة القسمة الثنائية** ، وهي مأخوذة من فرض المقدار مركبا من اجزاء لا متناهية ، تقول الحجة أن الجسم المتحرك لن يبلغ غايته الا بعد ان يقطع نصف المسافة اليها ، ثم النصـف الاخر .. وهكذا الى ما لا نهاية ، ولما كان اجتياز اللانهاية ممتنعا كانت الحركة ممتنعة .

وهناك حجة ثانية وهي تمثيل للاولى وتسمى «حجة أخيل » ومؤداها أننا اذا فرضنا « أخيـل » ذا القـدمين الخفيفتين يسابق سلحفاة وهي أبطأ الحيوانات وأن هذه السلحفاة متقدمة عليه مسافة قصيرة ، وانهمـا يبدآن الحركة في وقت واحد ، فان أخيل لن يدرك السلحفاة حتى يقطع المسافة الاولى الفاصلة بينهما ثم المسافة الثانية .. وهكذا الى ما لا نهاية .

والحجة الثالثة هي : **حجة الملعب** ، وتقوم على فرض الزمان مؤلف من آنات غير متجزئة والمكان من نقط غيـر منقسمة .

لنفرض وجود ملعب مربع الشكل ، ولنفرض وجود ثلاث مجاميع كل منها مؤلف من أربع وحدات أو نقط والثلاثة متوازية في الملعب . المجموعة الاولى تشغل .... نصف الملعب اليميني ، والثانية بعدها تشغل نصفه اليسار .... والثالثة تحتلها في الوسط تماما ....

لنفرض الان أن الاولى والثانيـة تتحركان بسرعة واحدة كل منهما باتجاه الاخرى بينما الثالـثة ساكنة لا تتحرك، ان الواحدة منهما تقطع طول الاخرى في زمن هو نصف الزمن الذي تقضيه لقطع طول المجموعة الساكنـة. أي أن الانتقال من احدى نقط المجموع الساكن الى النقطة التي تليها يتم في آن هو ضعف الآن الذي يتم فيه الانتقال من احدى نقط المجموع المتحرك الى النقطة التي تليهـا، فتقطع الحركة نفس المسافة في زمن معين وفي ضعف هذا الزمن ، فيكون نصف الزمن مساويا لضعفه ، وهذا خلف، اذن الحركة وهم .

لقد جاءت حجج زينون لهوا جديا ، ولكنها كانت أمرا جديدا في الفلسفة ، فانه لم يستعمل الجدل عرضا، وانما قصد اليه قصدا ووضعه في صيغة فنية ، ولكنه كان جدلا سالبا يذهب من **مقدمات ثابتة** ولكن من مقدمات تقبلها الخصم ، انه جدل يذهب الى تبيان عيوب الخصم ومغالطاته .

ثم جاء السفسطائيون ، الذين جعلوا همهم التشكيك والتلاعب بعقول العامة ، فليس هناك حقيقة مطلقة، لان الانسان مقياس لجميع الاشياء .

ان ما تراه حقا ، هو حق بالنسبة لك ، وما أراه حقا هو حق بالنسبة لي ، وأنا انسان وأنت انسان . وهكذا فقد كان الجدل بالنسبة اليهم اسلوبا للمغالطة والتضليل.

وعندما جاء سقراط ، كان همه الاول محاربة السفسطائيين بنفس اسلوبهم ، لقد كانت براعته في الجدل لا تحد ، كان يجعل خصومه يسلمون بأمور مناقضة لما اثبتوه في بادىء الامر ، ويتركهم في حالة عجز تام .

اما افلاطون فقد كان جدله هو الجدل السقراطي قبل كل شيء ، ولم يكن الجدل لديه موجبا فقط كما كان عند سقراط بل انه جدل دينامي يتضمن حركة في الفكر وتحفزا للفتح وتجاوزا للمعطى الاول .

حدد افلاطون الجدل بانه المنهج الذي يرتفع به العقل من المحسوس الى المعقول دون ان يستخدم شيئا حسيا، بل بالانتقال من معان الى معان بواسطة معان ، وبانه العلم الكلي بالمبادىء الاولى والامور الدائمة ، يصل اليه العقل بعد العلوم الجزئية ، ثم ينزل منه الى هذه العلوم يربطها بمبادئها ، والى المحسوسات يفسرها . فالجدل علم ومنهج يجتاز جميع مراتب الوجود من أسفل الى أعلى وبالعكس.

واذا كان افلاطون قد رفع الجدل الى مقام العلم والمنهج العلمي فان «ارسطو» قد عاد به الى معناه المتعارف عليه فحدده :

« بانه الاستدلال بالايجاب او السلب في مسألة واحدة بالذات مع تحاشي الوقوع في التناقض ، والدفاع عن النتيجة الموجبة او السالبة » . ان المجادل عنده ليس معنيا بمناقشة مقدمات المحاكمة التي يتفحصها ، بل ان وظيفته تتحدد في ملاحظة فيما اذا كانت النتائج مستنتجة بصورة مشروعة . فالمقدمات غالبا ما تكون محتملة ، وليس من شأن المجادل ان يبدي رأيه بصحة النتائج التي هي ذات علاقة بصحة المقدمات .

### « معالم الجدل الحديث »

كان معنى الجدل يتوحد احيانا بالمنطق عند بعض الفلاسفة القدماء ، ويفترق عنه عند البعض الاخر ، وفي بداية العصور الحديثة مالت كلمة « جدل » الى الاختفاء وحلت محلها كلمة « منطق » غير ان الفيلسوف الالماني « كانت » عاد فأحيا الكلمة بمعنى جديد بعض الجدة. وقبل « كانت » كان «ديكارت» يخلط بين المنطق والجدل وكان يشعر بعدم انسجام واضح ازاء رجال الجدل، يقول في هذا المجال : « ان الامر فيما يتعلق بالجدل شبيه بامر البلاغة والشعر، وفنون اخرى ، كالمبارزة ، ان المرء يخسر في تعلمها اكثر مما يربح » .

**هيجل :**

الا أن واجب صياغة المنهج الجدلي لاول مرة بطريقة عبقرية كان يقع على عاتق الفيلسوف الالماني « هيجل » وقد قيض لكلمة جدل ان تقترن دائما باسم **ذلك الفيلسوف** لانه حدد لها ميلادا جديدا يبدو معاكسا لجدل القدماء لقد كان جدل القدماء خاضعا تماما لمبدأ التناقض، بل ان الامر ابعد من ذلك فسبب وجوده هو منع الاحكام من ان تؤدي الى نتائج متناقضة ومن ثمة الى نتائج لا يمكن التوفيق بينها .

ان شيئا من الاشياء لا يمكنه ان يوجد والا يوجد في وقت واحد ، بل ان الفكر حينما يثبت بالتتالي قضيتين متناقضتين فيما بينهما فان واحدة منهما خاطئة ولا شك.

وكان لا بد من انتظار هيجل ليصوغ بصورة ظاهرة امكانية التوفيق بين المتناقضات فالاشياء موجودة وغير موجودة في وقت واحد انه يجعل من هذا التناقض النابض الاساسي لنشاط الموجودات ، لقد كان الجدل حتى هذا الوقت اما فن البرهان واما فن دحض البرهان ، اللذين يتضمنان معا عدم امكانية التوفيق بين الاضداد ، اما هيجل فقد جعل منه ما تذوب فيه الاضداد .

لنلخص الآن قواعد المنطق التقليدي الذي يعتمد عليه الجدل القديم بصورة مطلقة :

١ ــ مبدأ الذاتية : الشيء هو نفسه . فالنبات هو النبات والحيوان هو الحيوان، وباختصار آ . . هي . . آ . .

٢ ــ مبدأ عدم التناقض : لا يمكن لشيء ان يكون هو نفسه وعكس نفسه في نفس الوقت فالنبات ليس هو الحيوان . والحيوان ليس هو النبات ، والحياة ليست هي الموت، والموت ليس هو الحياة، وبالاختصار آ ليست الا آ .

٣ ــ مبدأ الثالث المرفوع : أو : استبعاد الحالة الثالثة . ليس هناك وجود لامكان ثالث بين امكانين متناقضين ، فالكائن اما حيوان او نبات وليس هناك امكان ثالث ، فاذا كانت آ . . و لا آ . . متناقضين فان أي شيء من الاشياء يكون اما آ . . أو . . لا آ . . هذه باختصار قواعد المنطق التقليدي . لكن الجدل الهيجلي حطم هذا المنطق .

كان هيجل يريد ان يتقبل الاطراف المتناقضة فيجمعها في وحدة شاملة وعنده ان الاساس الاول للوصول الى الحقيقة هو الاعتراف باتحاد الاضداد وانسجامها زاعما ان كل اثبات يتضمن نفيا ، وكل نفي يتضمن اثباتا . ذلك هو قلب فلسفة هيجل وصميمها ، وهو يطبق قانونه هذا على كل موضوع بغير استثناء . فقانون التناقض الذي يقول به المنطق الصوري القديم يجب ان يزول من اجل حقيقة هيجل العليا التي نسجم فيها المتناقضات ، والتي تذهب الى ان كل شيء يكون موجودا وغير موجود. فلا حقيقة الا لمجموعة الاشياء متحدة في كل ، ولا بد لكل جزء من الاتصال بذلك الكل لكي يكتسب صحته لان الشيء اذا اعتزل وانفرد ضاعت حقيقته . وكل شيء مرحلة ، مرحلة زائلة فانية توصل الى غيره .

ان مبدأ الذاتية القديم هو تحديد ما هو بسيط مباشر في الوجود . في حين ان التناقض هو جذر الحركة كلها ، ان التناقض الذي يحمله هذا الشيء في ذاته هو وحده الذي يجعله يتحرك وينشط. ان التوفيق بين الاضداد سواء في مجال الاشياء او في مجال الفكر يؤلف ما يدعوه هيجل بالجدل .

ان النهج الذي ينهجه الجدل يتضمن ثلاث مراحل : ١ ــ الاطروحة ــ ٢ ــ الطباق ــ ٣ ــ التركيب . وهذا ما يدعوه هيجل عادة : الاثبات والنفي ونفي النفي.

ان الثالوث الاول في مذهب هيجل هو اشهرها : الوجود موجود . وهذا هو الاثبات او الاطروحة . بيد ان الوجود غير المحدد بصفة كلية والذي ليس هذا او ذلك يعادل

العدم . بحيث ان الاثبات او الاطروحة تؤدي الى النفي او الطباق . ليس الوجود موجودا . ان هـذا النفي سوف ينفى ايضا فيكون التركيب في القضية : ان الوجود هو الصيرورة .

وهكذا فالتركيب اذ يرفع التناقض يظل محتفظا بالقضيتين المتقابلتين ، وهو يدل على توقف التفكير في الفكر او الحركة في الاشياء ولكنه ليس توقفا نهائيا. انه يستثير بدوره النفي الخاص به . ذلك النفي الذي لا بد لتركيب جديد من ان يرفعه وهكذا بدون تحديد.

**ماركس :**

كان انجب تلامذة هيجل ، ولكن هذا التلميذ النجيب سوف يشرع فيما بعد وفقا لمنهج هيجل في نقد هيجل نفسه . وفي نقد كل ما يمثله هيجل في الثقافة الالمانية وفي الفكر العام.

استطاع ماركس ان يرى في الجدل المنهج العلمي الوحيد ولكنه استطاع ايضا كمادي ان يضعه وضعه الصحيح ، فنبذ المفهوم المثالي للعالم ، أي المفهوم الذي يقول ان الوجود المادي نتاج للفكرة ، كما فهم ان قوانين الجدل هي قوانين العالم المادي وانه اذا كان الفكر جدليا فذلك لان البشر ليسوا غريبين عن هذا العالم ، بل هم جزء منه لقد نبذ القشرة المثالية لمذهب هيجل ليحتفظ بالنواة العقلية أي الجدل . وقد قال هو نفسه ذلك في التصدير الثاني بكتاب رأس المال : ان منهجي الجدلي لا يختلف في اساسه عن منهج هيجل فحسب بل هو نقيضه تماما فحركة الفكر الواقع وليس هذا الواقع الا الصورة الظاهرية للفكرة. أما الواقع وليس هذا الواقع الا الصورة الظاهرية للفكرة . اما عندي فحركة الفكر ليست الا انعكاسا للحركة الواقعية منقولة ومحولة الى المخ البشري.

ساعد ماركس في ذلك انطلاق العلوم الطبيعية في نهاية القرن الثامن عشر وفي اوائل القرن التاسع عشر. وسنرى ماركس وصديقه انجلز يتتبعان طوال حياتهما تقدم العلوم .

فكان المنهج الجدلي يتحدد في دقة بقدر ما تتعمق معرفة العالم . وخلال هذه الحركة ، كان لا بد للماركسية من ان تكسب علماء عديدين جدا من كل الاتجاهات.

وقد قام ماركس وانجلز بمحاولة اثبات خصوبة المنهج الجدلي ، اذ قاما بتأسيس علم المجتمعات ، ونظريته العامة هي المادية التاريخية ، وذلك بتطبيق « المادية الجدلية » على التاريخ البشري ، فالتاريخ بأكمله ليس الا تاريخ الصراع الطبقي ، وان هذه الطبقات الاجتماعية تتصارع نتيجة العلاقات الاقتصادية السائدة في العصر.

والان ما هي مبادىء الجدل الماركسي ؟ :

١ ــ المبدأ الاول : كل الاشياء مترابطة .

الجدل بعكس الميتافيزيقا لا يعتبر الطبيعة تجميعا عرضيا للاشياء والظواهر المنفصلة بعضها عن بعض ، بل يعتبرها شيئا واحدا مترابطا ، فلا يمكن فهم أي ظاهرة من ظواهر الطبيعة اذا نظرنا اليها منعزلة خارج الظواهر المحيطة بها وتتحقق صحة هذا المبدأ على نطاق واسع في الطبيعة والمجتمع . ان النباتات والحيوانات تتعلق بالوسط الذي تعيش فيه ويطورها ، ثم لا يلبث ان يتطور تحت تأثيرها.

٢ ــ المبدأ الثاني : كل شيء يتحول .

فالجدل الماركسي لا يعتبر الطبيعة حالة من السكون والجمود بل يعتبرها حالة حركة وتغير وتجدد وتطور. ينبغي الا ننظر للعالم وكأنه مركب من اشياء ناجزة، وينطبق هذا المبدأ بصورة عامة على المجتمع والطبيعة. يقول انجلز :

الحركة هي حال وجود المادة فلا توجد مادة بلا حركة ، فهناك حركة في الفضاء الكوني ، وحركة آلية لكتل اصغر فوق كل جرم سماوي. وذبذبة جزئيات في صورة حرارة او تيار كهربائي ، وكل ذرة واحدة في الكون تشارك في لحظة بعينها في صورة او اخرى من صور الحركة.

٣ ــ المبدأ الثالث : آلتغير الكيفي .

ان الجدل لا يعتبر التطور مجرد عملية تزايد لا تؤدي فيها التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية، بل يعتبرها تطورا ينتقل من التغيرات الكمية الكامنة التي لا دلالة لها الى تغيرات ظاهرة وجذرية ، أي الى تغيرات كيفية. والمثال الشهير آلذي يضرب على ذلك هو مثال الماء حينما يوضع على النار ، ترتفع درجة حرارته من درجة لاخرى وعندما تصل الحرارة الى مائة درجة يأخذ الماء بالغليان فيتحول الى بخار ماء . اذن الصعود المتغير في الحرارة يكون تغيرا في الكم ، وتغير الماء من حالته السائلة الى حالة البخار يكون تغيرا كيفيا . وهكذا فقد ادت التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية .

وعلى صعيد المجتمع نجد ان الثورة وهي تغير كيفي هي نتاج ضروري لتطور كمي. يقول ستالين: ان البروليتاريا قامت عام ١٩٠٥ بعد ان دبت فيها الحياة والقوة فهاجمت مخازن السلاح . هذه حركة ثورية أعد لها تطور طويل من السنين السابقة عندما كانت البروليتاريا تكتفي بالاضرابات المنعزلة .

٤ ــ المبدأ الرابع : صراع الاضداد.

التناقض شامل لانه محور كل تغيير ، والتناقض الماركسي واقع موضوعي . أي انه لا يوجد في الافكار فقط بل ان وجوده في الفكر ليس الا صورة عن وجوده الموضوعي الخارجي . والتناقض يفسر كل عملية طبيعية او اجتماعية . وصراع القوى المتضادة شامل في العالم الفيزيائي . ان ظاهرة عادية مثل حدوث صدأ في شوكة معدنية ليس الا نتاجا للصراع بين الحديد والاوكسجين. وان حركة مثل حركة الكواكب حول الشمس لا يمكن فهمها بدون الصراع بين ضدين هما : الجاذبية التي تنزع الى اسقاط الكواكب على الشمس والقصور الذاتي « أي قوة استمرار نفس الحركة » الذي ينزع الى ابعادها عن الشمس. وما الحياة الا صراع مستمر ضد الموت . ثم أليس تطور المجتمعات البشرية نتاجا لصراع الطبقات ؟

هذه مبادىء جدل ماركس . والان هل اعطينا فكرة واضحة عن الجدل ؟. لا اعتقد . ولكننا اعطيناه بطاقة تعريف صغيرة قد تفي بالغرض بالنسبة لغير المتخصص، ولكنها نقطة صغيرة وصغيرة جدا في بحر الجدل الواسع.

دمشق

**فراس سواح**

**بعض مراجع البحث :**


**تاريخ الفلسفة اليونانية : يوسف كرم**

**تاريخ الفلسفة الحديثة : يوسف كرم**

**قصة الفلسفة الحديثة : احمد امين ، زكي نجيب محمود**


**مراجع اجنبية :**


**أزمة الماركسية : هنري لوفيفر**

**الديالكتيك : بول فولكييه**

**المبادىء الاولية للفلسفة : جورج بوليتزر**

**تفكير ماركس : جان ايف كالفيز .**